الذوق في اللغة والانشاء

لجناب يوسف افندي لحمت

تمهيد

ان اهمية هذا البحث وحداثته بل غرابته تدعونا الى استفتاحه باعذار تشفع لنا عند العلماء الافاضل

فنفرّ اولاً مما نحن عليه من قلة البضاعة وعدم الكفاية للخوض في ميدان لسنا من فرسانه. وكنّا نودّ لو تكلف غيرنا مشقة هذا البحث ممن اتصفوا بغزارة العلم ووضع الماء مواضع النقب. والى ذلك اشرنا في مقالتنا السابقة في الذوق غير ان البعض من اولي العلم الذين طلبنا اليهم استطلاع امر اللغة من حيث الشوائب الموجودة فيها وسرد ذلك في مقالة صريحة العبارة لا يخلها الايهام نظروا الينا شذرًا وقالوا: ان قصدت ان تصنّف في هذا المعنى فاستهدف. قلنا: اما الاستهداف فعلى نوعين. اما تعرّض الذين يهجون آراءهم لهجو من اتصفوا بشرّة اللسن وهذا الهجو مما لا يعبأ به العاقل. وإمّا عرض بضاعة الافكار لانتقاد اصحاب الفطنة وهذا الانتقاد مما يسرّ به كل من لم تضلهم الابهة والخيلاء عن سواء السبيل. لانّ فيه سرّ العلم وبه الهداية الى مواطن الحقائق المجهوث عنها

ثم ان تعويلنا على الانتقاد في هذا البحث واعراضنا عن المدح مما يدعو اليه قصدنا استدراء المعوج لتقويمه والاشارة الى العيب لتلافيه. اي اننا لم نتعرّض لذكر ما في اللغة العربيّة من المحاسن العديدة والمزايا الوافرة من نحو غناها واتساع الفاظها ورقة معانيها ودقة مبانيها وسهولة التعبير بها عن المراد ونكتة فرائدها وغرائب شواردها وغير ذلك مما يحملنا على المباهاة والاعجاب لاننا فضلنا تنبيه الافكار الى ما فيها من العيوب لاجتنابها. وليس في ذلك شيء من الاستخفاف باللغة واحتقار شانها. فان الكمال في الاشياء البشريّة محال. وذم النقص للترغيب عنه خيرٌ من مدح الفضل للترغيب فيه. وان كان هذا العذر لا يخفف ما ربما يحسبه البعض وزرًا افترفناه بتطاولنا على اللغة وكشف عوارها. واذا عدّ ذلك عقوقًا وعداوة لايحسن بها التلطف والاستعطاف صبرنا على هذه الوصمة المشينة تجمّلاً بشرط ان نذكّر شانئنا بان مثل هذه العداوة لها بعض الفضل بدليل ما قاله الشاعر:

عداتي لم فضلٌ عليّ ومنةٌ ... فلا اذهب الرحمٰن عني الاعاديا

هُمُ بحثوا عن ذلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ونرى من الضرورة ايضاً قبل سياق الكلام عن موضوع هذا البحث ان نذكر بعض تعريفات تدفع عنا شبهات الالفاظ الباعثة على تعقد المعاني والالتباس . قال شيشرون الخطيب الروماني الشهير: "خير البحث ما يبتدأ به بتعريف المبحوث عنه . فكثيراً ما يحدث ان اختلاف الآراء في مسألة مخصوصة يكون ناتجاً عن اختلاف في المعاني الدالة عليها الالفاظ فلو تقيد المعنى بتعريف اللفظ لزال الاختلاف ووقع الاتفاق" . وهذا ما نراهُ في كثير من المباحث الواقع فيها الجدال يومنا هذا . ولا يخفى ما للجدال والمناظرة من كبير النفع فانهما تحدّ القرائح وتورث زناد الافكار لايراء نار الحقائق الخفيّة . وقد يخطئان الغرض لاسباب منها اهمال بيان دلالة الكلام والاضراب عن تحديد موضوع الجدال حدّاً تامّاً يمنع الاختلاط ويزيل الابهام . وذلك ما يجعل الجدال في غالب الاحيان حجة بلا طحن . وسنبتدئ الآن بذكر ما يخص من هذه التعريفات بكليات بحثنا وسنأتي في سياقهِ بما نراهُ ضرورياً لدفع الشبهة عن مفرداتهِ . فنقول

الذوق في اللغة والانشاء ملكة مكتسبة تميّز بين محاسن الكلام وشوائبهِ فتستحسن المليح منهُ وتستهجن القبيح . ومزيّة هذه الملكة الانتقاد وهو ان ينظر الى الكلام من حيث موافقتهُ لمقتضى الحال اولاً لان بذلك تقوم ملاحتهُ او قباحتهُ . وما احسن ما جاء بهِ صاحب حاشية المطوّل في شرح خطبة التلخيص حيث عرّف الذوق في اللغة بقولهِ " الذوق قوة ادراكيّة لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ومحاسنهِ الخفيّة "على انهُ لو قال "قوة مكتسبة" بدلاً من قوة ادراكيّة لاصاب الغرض بتعريفهِ واستوفى شروطهُ من حيث ذكر الجنس والفصل القريبين . ولما كان الكلام يتركب من الالفاظ ومجموع الالفاظ تقوم اللغة كان من الضرورة ابتداء هذا بالكلام عن الذوق في اللغة اولاً ثم الانشاء . ولهذا قسمناهُ الى بابين خصصنا الاول بذكر شوائب اللغة من حيث مجموعها ومفرداتها والثاني بشوائب الانشاء نظماً ونثراً وصدّرناها بمقدمة ذكرنا فيها بعض المباحث المهمة المختصة باللغة عموماً نؤمل ان القارئ لا يؤاخذنا بها اذا ابعدتنا قليلاً عن موضوع هذا البحث فان لها نوعاً من العلاقة بهِ وفيها فائدة لا تنكر

اللغة

قال الفاموس " اللغة اصوات يعبّر بها كل قوم عن اغراضهم . وقيل الكلام المصطلح عليهِ بين كل قبيلة . وقيل اللفظ الموضوع للمعنى " . وقد عرّف الفرنجة اللغة بانها "اظهار الافكار بواسطة الالفاظ " . نقول ان هذا التعريف الاخير اقرب الى الصواب لو اضيف

اليه لفظة مجموع . وقيل "اللغة مجموع الالفاظ المصطلح عليها بين قوم لاظهار افكارهم" . وعلى ذلك تعرّف اللغة العربيّة بانها " مجموع الالفاظ العربيّة والمعرّبة التي اصطلح عليها الناطقون بالضاد للتعبير عن افكارهم"

وقد اختلف العلماء في ما اذا كانت امّ اللغات اي اللغة الاصليّة منزلة ام اصطلاحيّة فمنهم من قال انها منزلة ومنهم من قال انها اصطلاحيّة . ولكلا الفريقين براهين وادلة استند اليها رأيهما . وفي ذلك بحث طويل لادخل للذوق فيه . غير اننا نقول من باب الاستطراد انه مهما كان الامر من صحة احد هذين الرأيين او خطائه فلا ينكر ان في الانسان قوة استعداديّة تمكنه بعد طول المدة من الارتقاء تدرّجًا من حيث الدلالة على افكاره من الاصوات والحركات الطبيعيّة الى الالفاظ الاصطلاحيّة . ولا يناقض ذلك ما ذكره هيرودوتس المؤرخ من ان ملكًا من ملوك مصر القدماء امر احد الرعاة ان يربي طفلين ذكرًا وانثى منعزلين عن الناس فلمّا نشأا وشبّا وهما لم يسمعا قط بنت شفة أحضرا امامه فلم يتفوها الّا باصوات اشبه شيء باصوات العجماوات . فان هذه التجربة غير مستوفية الشروط من حيث طول المدة . لان الارتقاء في سلم النطق لايكون في بادىء الامر الّا بطيئًا ولو تناسل هذان الطفلان وكثر نسلهما ومرّ على هذا النسل المتوحش مئات من السنين لكانت النتيجة خلاف ما ذكره هيرودوتس وذلك لانه لا بدّ من ان الذين يوجدون في الدور الاول من هذا النسل يصطلحون على بعض حركات واصوات وعلامات لايضاح تأثراتهم فيخلفون ذلك ارثًا يجدّ الخلفاء بتكثيره بما يضيفونه اليه من الالفاظ وهكذا يصنع خلفاء الخلفاء . فنهون رويدًا رويدًا صعوبة التعبير عن الافكار بازدياد عدد الالفاظ الى ان تصبح هذه الالفاظ بعد مرور الاجيال لغة تفي باغراض القوم من قبيل التصريح باللفظ عن حاجات النفس

وهذا ما يجعلنا نقدّر النعمة التي نحن حاصلون عليها الآن بوجودنا في دور بلغت فيه اللغة الى درجة من الكمال تغنينا عن ضياع ثمين الاوقات سعيًا وراء الالفاظ بالعكوف على اقتناء ثمرات العلوم واكتساب المعارف المفيدة . اما صعوبة تلافي الشوائب التي ستوردها فهي شيء لا يذكر اذا قابلناه بما عاناه الاولون من التعب والمشقة . وفضلنا بضبط اللغة التي خلفوها لنا وفقًا لمقتضيات الحال وتهذيبها على ما يلائم روح العصر واكتشافات العلماء دون فضلهم بايجاد نفس اللغة . وهذا تهذيب الخلفاء لما اوجده السلفاء ممّا لا ينسب الى بعض اولئك برّ هؤلاء ولا الى تقريبهم قدرهم . فان غاية اللغة التعبير باللفظ عن اغراض

النفس . وهذه الاغراض تختلف باختلاف الازمان وانواع المعيشة ودرجات الحضارة وطبقات العلوم . وذلك ما يبعث على تغيير طرائق التعبير من حذف واضافة واستحسان واستهجان . وان أُهمل ذلك في حينه فلا بدَّ من اتساع الخرق على الراقع مع تمادي الايام . فلا يعود يكفي التهذيب والضبط بل يؤول الامر الى الانحاء والاندثار اصالةً . فان قيام هذا الكون متوقف على موت مورِّث وبناء وريث وبلاء قديم ونسج حديث . وهاك اللغات القديمة التي نسميها ميتةً او منقرضة تشهد بصدق قولنا . وماذا يا ترى يكفل لنا ألّا يشاهد خلفاؤنا انقراض لغتنا كما نشاهد نحن الآن انقراض لغة سلفائنا سوى المبادرة في الزمن الحاضر الى الاصلاح والتهذيب قياماً بما تدعونا اليه النهضة العظيمة في سبيل الترقي في العلوم والصنائع التي نراها عياناً في هذه الاعوام الاخيرة (١)

وفي اللغة بحث آخر حثَّ العلماء ركابهم الى ميدانه وتجادلوا فيه ملبًّا وهو "هل اللغة الاصليَّة واحدة ام لا واذا كان الاول فاية اللغات هي" . وقد اجمع اكثر علماء

(١) ان الصعوبات التي تحول دون تدارك الشوائب التي سنذكرها زهيدة جدًّا بالنسبة الى ما يلحق باصلاح اللغة من العوائق اذا صحَّ مبدأ الماديين الذين يحاولون الان ترقيتنا في سلم الانسانية بجعل اول دركة هذا السلم الحيوانية . ولو كان هؤلاء يتبعون نتائج مبدإهم الى آخر دركة لاضطروا الى جعلها الجماد وقالوا ان اول امرنا كان الجماد ثم رقينا في درجة النمو فالحيوانية فالانسانية . والاَّ فما اذا تعني تلك مادتهم الازلية التي تدبرها نواميس اضطرارية في اشبه شيء بانسان اكم اصر اعمى يخبط خبط عشواء في فلوات هذه البسيطة وهو لا يدري من اين الابتداء والى اين المنتهى . فلنا ان مبدأ الماديين بعيق اصلاح اللغة وكان اولى بنا القول انه ينقض اركانها ويجعل اكثر الفاظها اسماء بلا مسميات . وبيان ذلك بالتفصيل يلهينا عن موضوع هذا البحث . ولا غرو ان نذكر شيئاً منهُ في ما يختص بتعريف اللغة الذي تقدمت الاشارة اليه . فنقول ان اظهار الافكار بالالفاظ مزية فطرية في بني آدم يمتازون بها عن المخلوقات امتيازاً جوهريًّا . ومن اجلها سمي الانسان حيواناً ناطقاً . واذا قابلنا قوى الانسان الظاهرة والباطنة من حيث ادراك الاشياء بما منها في المخلوقات رأينا ان الادراك في المخلوقات قاصر على ما تقبله لها الحواس الظاهرة . وان سلمنا بان للمخلوقات نوعاً من الحواس الباطنة فهذه ايضاً تقتصر على ادراك العين اي المحسوس وتذكرها لها اذا وقع تحت حواس المخلوقات الظاهرة شيء يشابه العين او له علاقة بها . اما الانسان فيدرك العين والمعنى ويتردد في النظر اليها ويتدبر بأمرها وهذا التدبر ندعوهُ تفكرًا وعليهِ يدلُّ اللفظ . وبيان ذلك ان لفظة كتاب مثلاً لا تدل على العين اي الكتاب المحسوس الذي تنتقش صورته في الباصرة ولا على معنى الكتاب اي صورته الذهنية التي ترتسم في البصيرة بل على تدبر العقل بالعين والمعنى اي على الفكر . وهذا ما يجعلنا لا نخلط الصفحة او الكراسة بالكتاب عند ذكرنا هذه اللفظة لعدم استيفاء الصفحة والكراسة الصفات الضرورية التي وضعها العقل لكيان الكتاب . فالفكر اذًا هو فعل القوة المميزة فينا التي ندعوها عقلاً وبهِ يمكن الانسان من وضع اسماء للذوات واسماء للمعاني وفي الاوصاف . ولا يخفى ان اسماء المعاني التي يقوم بها جانب كبير من الفاظ اللغة تسقط كلها وتفقد مسمياتها اذا كان الانسان لا يعقل الاَّ المحسوس من الاشياء كما هو راي الماديين لان المعاني ليست محسوسات

" الفيلولوجيا " اي علم اللغة على التسليم بان اللغة الاصليّة واحدة كما اجمع اكثر علماء " الانثروبولوجيا " اي علم الانسان على الاقرار بان انواع البشر من اصل واحد . وتوصل اولئك الى هذا الاجماع بعد مقاساة كبير العناء بدرس اللغات القديمة والحديثة ومقابلة اصولها وفروعها بعضها ببعض وتأثير التقلبات الطارئة عليها صعودًا الى مبادىء نشأتها . ولكن لم تتفق آراؤهم على تعيين هذه اللغة الاصليّة . فمنهم مَن قال انها العبرانيّة ومنهم مَن قال انها السريانيّة وذهب بعضهم انها العربيّة وارتأى البعض انها السنسكريتيّة وهي لغة الهنود القديمة . والرأي عندنا انهُ لا يمكن حل المسألة حلاً باتًا لتقادم الازمان وانقطاع الآثار التاريخيّة مئات بل الوفًا من السنين . ولا يبعد ان تكون اللغة العربيّة هي الاصليّة بدليل اتفاق اكثر العلماء على تعيين لغة من اللغات السامية الثلاث وهي العبرانية والسريانيّة والعربيّة انها الاصليّة وقد ارتأى فريد عصرهِ السيد داود الموصلي رئيس اساقفة دمشق على السريان (وكان رحمة الله عليهِ من فطاحل العلماء خبيرًا باللغات السامية عارفًا

ومن اغرب ما جاء به احد الماديين الافاضل تعريفهُ المعنى العقلي بقولهِ ان المعنى العقلي ليس الاَّ تأثيرًا ماديًا او هو صورة المادة المرتسمة في الدماغ كما ترتسم الصورة في المرآة . نقول ان الماديين الذين اشتهروا بايجاد قرابة بين الاشياء الاكثر ابتعادًا وقد سلسلونا الى القردة لترضيهم هذه القرابة بيننا وبينها لم يعثر عليهم وجود قرابة بين التأثير المادي والمعنى العقلي بل جعلوا هذا التأثير نفس المعنى . ولا يخفى ما في هذا القول من بين التناقض ولا يقتضي اجهاد العقل بالبراهين لدحضهِ . وهاك مثلاً من الامثال الكثيرة التي تكذبهُ . ان لفظة عدم تدل على معنى في العقل وهو نفي الوجود ومع ذلك فليس العدم مادة مرتسمة في الدماغ لان الدماغ يمثل الموجود بواسطة الحواس ولا وجود للعدم . اما كون لفظة عدم تدل على معنى في العقل فذلك مما لا ينكرهُ ذو جنان سليم لان انكارهُ مما يوجب انكار مبدإ التناقض الذي هو اساس العلم والقاعدة الاولى لكل المعارف البشرية . وعليهِ فمبدأ التناقض يقوم بمقابلة لفظتين العدم والوجود بالاقرار بانهما لا يمكن اطلاقهما على شيء واحد في آن واحد . وان قلت ان العدم ليس بشيء ولا يمكن مقابلتهُ بشيء . قلنا هذا ما يجب استنتاجهُ من رأي الماديين الذين ينكرون كل ما لا يقع تحت الحواس . لكننا اذا راجعنا القاموس في لفظة (شيء) نرى فيهِ هذا التعريف (الشيء ما يصح ان يعلم ويخبر عنهُ فيشمل الموجود والمعدوم ممكنًا او محالاً قديمًا او حديثًا) ولا يمكننا فهم هذا التعريف الاَّ اذا سلمنا بان لفظة (عدم) تدل على معنى في العقل . ولزيادة الايضاح نقول ان بين هذين القولين (تصور العدم) و (عدم التصور) فرق عظيم لان الاول يدل على فعل عقلي والثاني يدل على نفي هذا الفعل اي ان الاول ايجابي والثاني سلبي ومن قال ان تصور العدم هو عدم التصور قرعناهُ حتمًا ونسبناهُ الى اللحن والخطاء . وقس على ذلك كل الالفاظ المجردة التي تقوم لتلخ الصفات عن الذوات وجعلها معاني قائمة بنفسها فانها تعدم مدلولاتها ومسمياتها اذا صح رأي الماديين . على ان هذه المعاني وان كان يشترط لادراكها تصور الحسوس فليست في نفس هذا المحسوس . لان ما يكون لوجود شيء لا يمكنهُ ان يكون نفس هذا الشيء والاَّ لكان الشرط وجوابهُ شيئًا واحدًا وهذا ممتنع لغةً وعقلاً .

سرائر اصولها) ان اللغة العربيّة اقدم سائر اللغات واقربهنّ كلهنّ الى اللغة الاصليّة التي هي امّ لهنّ . واورد لاسناد رأيه براهين عديدة في مقدمته لكتاب التمرنة لا نرى من باعث على ذكرها هنا

اما تاريخ اللغة العربيّة منذ نشأتها فمحاط بظلام دامس لا يستطيع تبديدهُ برهان العقل واستدلال الاكتشافات . وخلاصة ما ذكرهُ التاريخ بهذا المعنى ان اللغة العربيّة تنسب الى يعرب بن قحطان او يقطان بن عابر بن شالح بن نوح . وان اول من تكلم بها العرب البائدة وهم قبائل لا يعرف لهم خبر مفصّل لتقادم العهد ثم العاربة وهم قبائل اليمن من ولد قحطان ثم المستعربة وهم قبائل متفرقة من ولد اسمعيل . وان العرب المأخوذ عنهم اللسان العربي الموثوق بعربيتهم هم بنو قيس وتميم واسد وهذيل و بعض الطائيين . وان من هذه القبائل بني قريش وهم بطون مضر ولد اسمعيل وانهم مفضلة على غيرها لان فيها القرآن الشريف . وان من نقل اللسان العربي عن هؤلاء واثبتهُ في كتاب فصيرهُ علمًا وصناعة هم اهل البصرة والكوفة . وقد انتشرت من بعد ذلك اللغة العربيّة انتشارًا عظيمًا و بلغت مقامًا رفيعًا ايام الخلفاء العباسيين في المشرق والدولة الامويّة في المغرب . وكان دورها الذهبي على ما اصطلح عليهِ الفرنجة منذ القرن الثامن الى اواخر القرن الثالث عشر . ثم لحق بها ما يلحق بكل الامور البشريّة من ابتداء دور النقصان عند انتهاء دور الكمال . الاّ انها لم تزل الى غاية يومنا تعد من اللغات الحيّة الاكثر اتساعًا نسبة لعدد الذين يتكلمون بها وشأنها في الهيئة الاجتماعيّة عظيم لان الناطقين بها حالون بأحسن البقع تربة وهواء وموقعًا وقد اتصفوا بالذكاء والنباهة . واذا فكرنا فيما وصلنا اليهِ بجدّ اصحاب النضل في مدة لا تزيد عن ربع قرن وفرضنا ان هذا الارتقاء السريع في سلم الحضارة لا تعيقهُ آفة الفتور وضعف العزيمة كان لنا كبير الامل بان خلفاءنا من بعدنا لا ينظرون الى الفرنجة بعين الاستعظام كما ننظر اليهم الآن . وسيأتي بسط الكلام على شوائب اللغة في الجزء التالي

لحم المعدن بالزجاج

المزيج المصنوع من ٩٥ جزءًا من القصدير وخمسة اجزاء من النحاس الاحمر يجعل المعدن يلصق بالزجاج . ويصنع هذا المزيج باذابة القصدير ثم وضع النحاس فيهِ حتّى يذوب ويحرك المزيج بعود . واذا طليت المعادن بهذا المزيج ظهرت بيضاء كالفضة